

فى سىكولوجىة الرمزىة

بقلم

عدنانة الذهبى

١

الكلام فى الرمزىة — وأقصد من هذه الكلمة ، كلمة (رمزىة) هنا ، ذلك المذهب الفنى الذى أخذ ، منذ أوائل القرن التاسع عشر^(١) ، يصبغ الفنون فى أوربا ، وبخاصة الأدب ، بصبغة الأسلوبىة الأصيلة — الكلام فى هذا المذهب الفنى إذن ، نستطيع أن نتناوله من وجهات نظر عدة أبرزها : وجهة النظر التاريخىة التى يتركز القول فىها فى دراسة العوامل السىاسىة ، والاجتماعىة ، والثقافىة ، والفنىة ، التى مهدت السبيل لظهور هذا المذهب فى تاريخ الفنون الأوربىة الحديثة ؛ ووجهة النظر الفنىة ، وهى بالنسبة إلى الرمزىة فى الأدب وجهة النظر البلاغىة ، التى يتركز القول فىها فى دراسة الأصول الأسلوبىة التى يتميز بها هذا التعبير ، الذى هو التعبير الرمزى ، عن غيره من أساليب التعبير الفنى ؛ وأخيراً ، وجهة النظر السيكولوجىة ، وهى فى الحقيقة نوع من الدراسات المتعلقة بسيكولوجىة الفن ، التى يتركز القول فىها فى دراسة العمليات النفسىة التى هى فى أساس إبداع هذا النوع من التعبير الرمزى المظلل .

(١) أقول منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لأن وفاة الشاعر (فرايدرش فون هردنبرج) (Freidrich von Hardenberg) ، المولود سنة ١٧٧٢ ، والمعروف باسم (نوفالس) (Novalis) — وهو أول مبشر بالرمزىة كمذهب فنى واع فى الفنون الأوروبىة الحديثة — وفاته كانت إذن سنة ١٨٠١ ، أى فى مطلع هذا القرن ، عن ٢٨ عاماً من عمره . — وأنا إذ ألاحظ أن المقصود من الرمزىة إنما هو ذلك المذهب الفنى الحديث ، رغم أن هنالك أمثلة رمزىة كثيرة ، قد سبقت عصر هذا المذهب ، فهذا لألت النظر إلى أن البحث السيكولوجى هنا منصب فى العمليات النفسىة التى هى فى أساس هذا التعبير الرمزى ، الذى تمثله فنون هذه الفترة خير تمثيل . — مع أنه لا يخفى ، أننا فى البحث السيكولوجى يمكننا أن لا نتقيد بمصر بعينه ، أو بأدب بعينه . . .

ودراستنا هذه ، سنخصصها لمعالجة وجهة النظر السيكلوجية ، مع الاستعانة فيها ، بصورة طبيعية ، بكل ما يمكننا الاستعانة به من وجهتي النظر السابقتين ، أى وجهة النظر التاريخية ، ووجهة النظر الفنية .

ولكن . كما أن لكلمة (رمزية) مدلولات اصطلاحية أخرى ، إلى جانب دلالتها الفنية على هذا المذهب الرمزي ؛ وكما أنه يترتب . بالتالى ، على هذه المدلولات الثانية التى هى للرمزية ، مجالات للبحث السيكلوجى أخرى ، غير مجال بحثنا فى سيكلوجية الفن الرمزي ، فطلباً للدقة ، وإظهاراً لموضع الرمزية فى الفنون بين أنواع هذه الرمزيات الأخرى ، وأظهاراً . بالتالى ، لمجال بحثنا السيكلوجى بين أنواع مجالات البحث السيكلوجى فى الرمزية ، نحجب ، قبل كل شئ ، ومقدمة لهذه الدراسات ، نحجب إذن أن نمر مسرعين بأنواع هذه الرمزية ، نوضح المقصود من كل منها . كما نحدد ، فى كل منها أيضاً ، مجال البحث السيكلوجى

التعريف بالرمزية وبمجالات البحث السيكلوجى فيها

لكلمة رمزية ^(١) (Symbolisme) ، اليوم اذن ، مدلولات اصطلاحية مختلفة ، قد عدها الأستاذ لالند (Lalande) خمسة ، ما بين فلسفية ، وعلمية ، وفنية ^(٢) ؛ يمكننا ، نحن أن نقسمها ، من أجل حصرها حصراً يميز الرمزية فى الفنون عن سائر أنواع الرمزية ، قسمين أساسيين متميزين تمام التميز . يسهل علينا إدراك ما بينهما من فوارق ، إذا نحن بدأنا الكلام ، الآن ، بالتحدث فى المقصود من كلمة (رمز) symbole هذا الرمز الذى هو اللبنة الأساسية فى بناء الرمزية بأنوعها .

١ - الرمز والرمزية

وهنا إذن نقول أن لكلمة (رمز ^(٣)) اليوم ، مدلولين اصطلاحيين ، إن

(١) كلمة (رمزية) اسم مؤنث ، هى من حيث اشتقاقها ، مصدر صناعى ، من مادة رمز يرمز ، رمزاً ، التى تعنى الإشارة ؛ والاسم فيها : الرمز . — وأصل هذه المادة فى اللغة العربية ، التحرك ؛ بينما اصل مادة كلمة (Symbolisme) فى اللغة اليونانية ، الحزر أو التقدير (sumbollein) المؤلف من (sum = مع) و (boleln = حزر)

2) Vocabulaire technique et critique de la philosophie.

A. Lalande.-Paris. 1926. T. II pp. 844-846

(٣) كلمة (رمز) فى هذه الدراسات كلها ، مستعملة على انها اسم مذكر ، مفرد ، يجمع على رموز ، تمييزاً لها عن استعمالها كمصدر : فتعنى آئذ ، لغوياً ، القيام بالإشارة ، وبلاغياً ، نوعاً غامضاً من الكناية ، سميت (الرمز الكنائى)

كان معنى الإشارة يجمع بينهما ، إلا أنهما يتميز الواحد منهما عن الآخر ، بنوع الإشارة التي يشير بها . وبنوع ارتباط مدلولها الإشاري بها . وهذان المدلولان ، أحدهما شامل عام ، والآخر فني دقيق .

١ - المدلول الشامل للرمز

في المدلول الأول ، المدلول الشامل ، الرمز إشارة *signe* ، أى شيء ، أو علامة ، قد عرف مدلولها الإشاري ، إما عن طريق الإصلاح العلمي ، كما هي الحال في الإشارات أو الرموز العلمية ؛ أو عن طريق التواطؤ الاجتماعي ، كما هي الحال في الإشارات أو الرموز الاجتماعية ؛ حتى أصبحت هذه الإشارات أو الرموز ، كلما وقف المرء عليها ، استيقظت مدلولاتها الإشارية المقصودة في نفسه ، هي في ذاتها .

مثل ذلك حرف (C) في الكيمياء ، رمز لمادة الكربون ؛ أو حرف (J) في الفيزياء ، رمز لقوة حرارية هي الجول ؛ أو إشارة (+) في الرياضيات ، التي تدل على أن القيمة التي على يمين هذه الإشارة مضافة إلى القيمة التي على يسارها ؛ أو إشارة (٠) في معرض الكتابة ، التي تدل على أن الكلام قد أفاد ، وأن على القارئ أن يقف ؛ أو أى كلمة من كلمات (اللغة) ، التي ينقل المرء بواسطتها أفكاره ومشاعره وإراداته إلى من يجيد معه فهم هذه اللغة . ككلمة (خبز) التي تدل على نوع من الغذاء ؛ أو كلمة (ألم) التي تدل على نوع من الوجدانات ؛ أو كلمة (رمز) التي كان يقول نواليس Novalis فيها : « أنها هي نفسها رمزية ^(١) » بمعنى أنها هي ، كغيرها من كلمات اللغة ، إشارة - ملفوظة كانت أو مكتوبة - تدل على شيء أو على معنى ، قد عرف أنه المقصود من هذه الإشارة وهكذا . . . وهكذا . . . حتى أننا إذا أردنا أن نتوسع قليلا في ضرب الأمثلة على هذا المدلول الإشاري الشامل الذي هو لكلمة الرمز ، رأينا أن كل شيء ، يحمل في نفسه هذه الدلالة الإشارية ، وبخاصة في الحياة الاجتماعية ، هو أيضاً رمز . مثل ذلك ، في هذه الحياة الاجتماعية ، علاوة على اللغة التي هي أكبر نظام رمزي اجتماعي ، مثل ذلك (الألبسة) الخاصة ، التي تميز الطبقات الاجتماعية بعضها عن بعض ، كطبقة رجال القضاء مثلا ، الذين تميزهم ألبستهم بألوانها

1) Journal intime, Hymne à la nuit, Fragments inédits.-

Novalis.-Trad. fr. J. Claigneau, G. Clarette.-Paris. 1917, p. 212

وشاراتها . عن طبقة رجال الجيش الذين لهم ، هم أيضاً ألبسهم الخاصة وشاراتهم ،
أو رجال الدين ، وهلم جرأً (١) . . .

وهكذا إذن، يكون (الرمز) le symbole . حسب هذا المدلول الشامل الأول ،
(إشارة) signe ، قد عرف مدلولها الإشاري ، أو إصطلح عليه إصطلاحاً .
فما هو نوع الرمزية المترتب على نوع هذه الرموز أو الإشارات ؟ !

٢ - الرمزية المترتبة على هذا المدلول الشامل .

في الأجابة على هذا السؤال ، أحب أن أسجل هذه الملاحظات الصرفية
- نسبة إلى الصرف - المتعلقة بالدلالة ، دلالة الاشتقاق ، التي هي لكلمة رمزية ،
هذه الدلالة التي سننوع الرمزية بواسطتها إلى أنواع - في حدود المدلول الشامل
للرمز - تترتب على أنواع هذه الرموز والإشارات التي عرضنا لها الآن .

فصيغة اشتقاق هذه الكلمة ، كلمة رمزية - وهي المصدر الصناعي -
تفيد فكرة الشيء الذي تصاغ (٢) منه أو جوهره ، بعبارة أخرى ، هي تفيد

(١) على سبيل إبداء فكرة منظمة عن أنواع هذه الرموز أو الإشارات - علمية كانت
أو اجتماعية - أحب أن أذكر هنا تقسيم الأستاذ (فيرو) (G. Ferrero) لها ، هذا التقسيم الذي
وفر فيه عامل تطورها النوعي ، وتسلسلها الزمني ، وأخضع هذا التسلسل وذاك التطور ، لقوانين
نفسية ، هي القوانين التي أقام عليها كتابه : "Les lois philosophiques du Symbolisme.-G. Ferrero Paris. 1895 pp.27-75"

ففيرو يقسم هذه الرموز أو الإشارات قسمين ، حسب مخاطبتها إحدى ملكات النفس : فيسمى
الرموز أو الإشارات التي تخاطب العقل وتثير فيه معنى من المعاني ، يسميها (الرموز العقلية)
(Symboles intellectuels) وهي على التالي :

١ - الرموز المساعدة على التذكر . - Symboles mnémoniques

٢ - الرموز المصورة . - Symboles pictographiques

٣ - الرموز المجازية . - Symboles métaphoriques

٤ - الرموز الصوتية . - Symboles phonologiques

ليضيف ، فيما بعد ، الى كل قسم منها ، ما يسميه : (الرموز المختصرة) (Symboles de réduction)
ويبحث فيما بعد فيما يسميه : (الرموز الصوفية)

هذان من جهة ، وأما الرموز أو الإشارات التي تخاطب الوجدان ، وتثير فيه حالة وجدانية معينة
فهو يسميها : (الرموز الانفعالية) (Symboles émotifs) ، وهي الرموز أو الإشارات الدينية أو
الفضائية أو السياسية . . .

وأما نوع الدراسة السيكولوجية في هذه الرموز والإشارات ، وفي القوانين النفسية التي أقام
عليها فيرو تقسيمه هذا ، فستكون لنا عودة عليه ، فيما بعد .

(١) يصاغ المصدر الصناعي بأن تأتي بالاسم في المادة اللغوية ، ونضيف اليه ياء النسبة وتاء
التأنيث ، مثل : الرمزية من الرمز ، والإنسانية من الإنسان ، والجمادية من الجماد .

مجموعة الصفات التي يكون الشيء بها هو هو ، مثل كلمة رمزية التي تفيد فكرة الرمز ، أو كلمة إنسانية التي تفيد فكرة الإنسان ، أو كلمة جمادية التي تفيد فكرة الحماة وهكذا مما له هذه الدلالة الاشتقاقية .

وهنا ، بالنسبة إلى كلمة (رمزية) ، لاحظت أن هذه الكلمة تفيد ، بالضبط ، هذه الدلالة الاشتقاقية ، عندما نضيفها إلى غيرها من الأشياء ، ونقول مثلاً : رمزية اللغة ، أو رمزية الأحلام ، أو رمزية الأساطير ، وهكذا ، مما يقصد منه ما ترمز إليه هذه اللغة ، وهذه الأحلام ، وهذه الأساطير ، المعبرة رموزاً . بهذا المدلول الشامل الأول لكلمة رمز ؛ في حين أنها — أى كلمة رمزية — عندما نستعملها بمفردها ، من غير أن نضيفها إلى شيء آخر ، كما هي الحال في الأمثلة السابقة ، ونقول : (الرمزية) فقط ، فإنها آنذا . تعنى ذلك المذهب الفني ، الذي هو المذهب الرمزي ، الذي يعيش اليوم بين ظهرانينا في الفنون العربية أو الذي كان قد صيغ ، بصبغته الخاصة ، الفنون الأوروبية الحديثة في القرن المنصرم . وإذن على هذا الأساس ، أى على أساس استعمال هذه الكلمة ، استعمالها إما مضافة إلى أشياء معتبرة رموزاً نريد أن نعرف ما ترمز إليه ، أو استعمالها بمفردها للدلالة على ذلك المذهب الفني في التعبير ، يمكننا تمييز أنواع الرمزية : فنحن عندما نستعمل كلمة (الرمزية) بمفردها ، ذلك المذهب الرمزي في الفنون ؛ ولكننا عندما نريد أن نستعملها لندل بها على ما ترمز إليه بعض الإشارات — هذه الإشارات التي هي في الحقيقة ، وقائع أو ظاهرات تاريخية ، كما هي الحال في الرموز أو الإشارات التاريخية ، أو هي وقائع أو ظاهرات اجتماعية ، كما هي الحال في رموز المجتمعات وإشاراتها ، أو هي وقائع أو ظاهرات علمية ، كما هي الحال في الرموز أو الإشارات الخاصة ، كأنواع الحروف الأبجدية في اللغات وأنواع التاليف بها ، أو غير الأبجدية من رموز وإشارات اصطلاحية — في هذه الحالة إذن سنظل نستعمل كلمة (رمزية) ، التي تفيد جوهر الرمز في هذه الوقائع ، أو بالأحرى ما ترمز إليه هذه الوقائع ، ولكننا سنستعملها منعوتة بنعت هذه الوقائع أو الظاهرات التي سنضيفها إليها ، فنقول فيما ترمز إليه أشكال الحروف في اللغة ، وأصواتها (الرمزية اللغوية) ، ونقول فيما ترمز إليه بعض الظاهرات أو الوقائع الاجتماعية والتاريخية ، كالعادات والتقاليد الرمزية مثلاً ، أو كالأعمدة والأنصب التاريخية الرمزية ، (الرمزية الاجتماعية) أو (الرمزية التاريخية) ، وهكذا مما

هو بعيد كل البعد عن الرمزية بمعناها المذهبي الفني .
نعم ، وأما عن (نوع الدراسة) التي تدرس بها هذه الرمزيات بأنواعها ،
فن الخير أن نقول بالمناسبة ، أن هذه الرمزيات تدرس ضمن نطاق العلم الذي
تنتمي إليه وقائعها أو ظاهراتها ؛ فمثلا : الكلام في دراسة الرمزية اللغوية ، سيكون
في حدود المنطق من جهة ، وهذا لمعرفة كل ما يتعلق بدلالة مفردات هذه اللغة ،
وفي حدود الإعراب من جهة ثانية ، لمعرفة أثر التركيب في هذه الدلالة ، كما
نرى تفصيل القول في هذا في كتاب : (The Meaning of Meaning. - C. K. Ogden; I. A. Richards: 1930)
وكذلك الحال في دراسة الرمزية
التاريخية أو الرمزية الاجتماعية ، فالكلام فيها سيكون كله تاريخياً أو اجتماعياً ،
يبحث في معتقدات الأقوام التي نشأت عندهم هذه الإشارات أو الرموز ، كما يبحث
في عاداتهم وتقاليدهم ، وهكذا كما نرى هذا في كتب كثيرة ؛ منها كتاب :
(Goldsmitn- : أو كتاب (Goblez d'Alviella: La migration des symboles-1891)
Ancient Pagan symboles 1929)

وهكذا مما يتضح لنا معه نوع هذه الرمزيات المترتبة على هذا المدلول
الشامل الأول لكلمة رمز ، ونوع الدراسة التي تدرس بها . فما هي إذن ، مجالات
البحث السيكلوجي في هذه الأنواع من الرمزية ؟ .

٣ مجالات البحث السيكلوجي في هذه الأنواع من الرمزية .

هنا ، في تحديد مجالات البحث السيكلوجي في هذه الأنواع من الرمزية
المترتبة على المدلول الشامل الأول للرمز، نقول كما أننا رأينا أن الرموز أو الإشارات
التي تدرسها هذه الأنواع من الرمزية هي وقائع أو ظاهرات تاريخية ، كما هي
الحال في الرموز أو الإشارات التاريخية ، أو وقائع أو ظاهرات اجتماعية ، كما هي
الحال في الرموز أو الإشارات في المجتمع ، أو وقائع أو ظاهرات علمية ، كالأصطلاحات
الخاصة ؛ ثم كما أننا رأينا أن دراسة هذه الرموز أو الإشارات ، هي في الحقيقة ،
دراسات تاريخية أو اجتماعية أو علمية خاصة ، تعهد بنطاق العلم الذي تنتمي
إليه وقائعها أو ظاهراتها ؛ فالدراسة السيكلوجية في هذه الأنواع من الرمزية إذن
ستكون على هامش هذه الدراسات التاريخية أو الاجتماعية أو العلمية الخاصة ؛
مثل ذلك : مع الرموز أو الإشارات التاريخية أو الاجتماعية ، ستكون الدراسة
السيكلوجية تاريخية اجتماعية أيضاً . تدرس القوانين النفسية التي بموجبها تعمل

هذه الرموز أو الإشارات في النفس الإنسانية ، أو التي بموجبها تتطور مع الزمن وتبدل ، كما درس هذا الأستاذ فريرو (G. Ferrero) في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه : « القوانين السيكلوجية للرمزية (١) » . أو مثل ذلك ، مع الرموز أو الإشارات الاجتماعية ، ستكون الدراسة السيكلوجية ، دراسة سيكلوجية اجتماعية تتعلق ، قبل كل شيء ، باكتساب الطفل للغة ، التي هي أكبر نظام رمزي اجتماعي ، ومراحل هذا الاكتساب ، ثم تتعلق بشعور الطفل ، وهو يتعرع ، بالرقابة الاجتماعية المتمثلة في الرموز القضائية والسياسية والدينية ، ثم تتعلق ، بتكامل الطفل هذا التكامل الرمزي (Symbolic Integration) في المجتمع الذي يعيش فيه ويتعرع ، كما درس هذا كله سيكلوجيون كثيرون ؛ منهم الأستاذ ماركي (Markey) في كتابه (٢) (Symbolic Process and its Integration in Children.-London 1918)

(١) موضوع كتاب الأستاذ فريرو هو ، كما يدل عليه العنوان : القوانين السيكلوجية للرمزية . وسنلخصه الآن من غير أن نسمح لأنفسنا بنقده . إلا أننا علينا أن نلاحظ هنا أن الرمزية هنا ليست (الرمزية) في الفنون ، لا ، وإنما هي الرمزية التي نميزها نحن بأن نتعها بأنها (الرمزية التاريخية الاجتماعية) .

وأما هذه القوانين السيكلوجية فهي : أولاً : قانون القصور الذاتي الفكري (La loi de l'inertie mentale) ، الذي شرح به فريرو ، العمليات النفسية في إدراك الرموز ، بإرجاعها ، كمادة الارتباطيين ، إلى عمليات كيميائية في الجهاز العصبي ، أساسها إحساس خارجي محسوس من المحسوسات يشير في النفس الإنسانية مكنونا أو معنى ، إذا تواطأ المجتمع على قرنه بمحسوسه صار هذا المحسوس رمزاً له .

وأما القانون الثاني فهو : قانون الأقل جهد يبذل (La loi du moindre effort) ، الذي يشرح به فريرو تطور هذه الرموز أو الإشارات في المجتمعات وتبدلها فيها من زمن إلى آخر ؛ كتطور الألفباء مثلاً ، من الرموز المساعدة على التذكر ، إلى الرموز المصورة ، فالرموز المجازية ، فالرموز الصوتية — وهذا القانون يتشعب منه أيضاً ، قانونان آخران ، هما قانون التوقف الفكري (La loi de l'arrêt mental) — وقانون التوقف الانفعالي (La loi de l'arrêt émotif) — هذان القانونان اللذان يشرح بهما فريرو نشأة مما يسميه بالرموز الصوفية وتطورها .

وفي الكتاب إلى جانب هذا كله تطبيق لهذه القوانين على الرموز الاجتماعية المعاصرة .

(٢) العمليات الرمزية (Symbolic Processes) اصطلاح في علم النفس الاجتماعي يقصد منه العمليات السيكلوجية المتعلقة من جهة ، باكتساب الطفل فهم رموز المجتمع الذي يعيش فيه ، وبصورة خاصة اكتساب فهم رموز اللغة ، ومتعلقة من جهة ثانية ، بشعور الطفل ، وهو يتعرع بالرقابة الاجتماعية ، هذه الرقابة المتمثلة في رموزها القضائية والسياسية والدينية .

وهذه الموضوعات نجهدها معالجة في كتاب (Symbolic Process and its integration in children) الذي جمع فيه مؤلفه الأستاذ (Markey) كثيراً من الإحصائيات والرسوم البيانية ليدل على دقائق دراسته السيكلوجية في هذا كله .

وهكذا ، مما نستطيع أن نلخصه هنا ونقول : إن الدراسة السيكلولوجية في هذه الأنواع من الرمزية هي ، إما دراسة سيكلولوجية اجتماعية من جهة ، وإما هي دراسة سيكلولوجية اجتماعية تاريخية من جهة ثانية .

ب — الرمزية في الفنون

نترك الآن هذه الأنواع من الرمزية ، التي ميزناها بأنها رمزيات تاريخية أو اجتماعية أو علمية اصطلاحية ، وكلها مرتبة على المدلول الشامل الأول لكلمة رمز . ونترك مجالات البحث السيكلوجي فيها . وندخل في الكلام في الرمزية في الفنون ، أو الرمزية في التعبير الفني ، سواء كانت أدوات هذا التعبير ، ألفاظاً كما هي الحال في الأدب ، أو ألحاناً ، كما هي الحال في الموسيقى ، أو خطوطاً وألواناً ، كما هي الحال في النحت والرسم ، أو حركات ، كما هي الحال في الرقص .

١ — الرمزية بين المذاهب الفنية

وأول مسألة يجب ابتداء الكلام بها هنا ، هي موضع الرمزية كمنهج في التعبير ، ، من تاريخ الفنون الغربية (١) الحديثة . وذلك أنه من المعروف في هذا التاريخ ، أن الفنون بأنواعها ، وبصورة خاصة الأدب ، لانهتجش أبداً على شكل واحد ، وإنما هي في تطور (٢) مستمر ، بموضوعاتها وأساليبها ، تطور

(١) أما الفنون الغربية فلها شأن خاص : وذلك أن القديمة منها ، وبصورة خاصة الأدب ، قد جهلت حياة المذاهب الغربية جهلاً تاماً ، فلم يكن لها مذهب رمزي ولا مذهب واقعي ولا غيرها من المذاهب الفنية المعروفة في الغرب ، وإنما كان لها نوع خاص من الحياة المذهبية ، ونوع خاص من التطور أيضاً ؛ لا يصعب أن يثر المرء فيهما من غير شك على نصوص تحمل خصائص مذهب من المذاهب الغربية .

واليوم بعد نهضة العرب وبعد احتكاك رجال الفكر والفن عندهم بالتقافات الغربية ، اليوم إذن ، تبدأ الفنون العربية بعمرقة هذه الحياة المذهبية الغربية حتى أننا نستطيع الآن — وإن كنا ما نزال في مطلع هذه النهضة — نستطيع أن نؤرخ لأي مذهب من هذه المذاهب الجديدة : ولقد فعلت هذا أنا بالنسبة إلى الرمزية فوجدت أنها كحركة تبدأ مع جبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) في أدبه ورسومه الرمزية ثم تلتفها في لبنان شعراء كثيرون وأدباء أبرزهم أمين نخلة . سمعيد عقل . البير أديب . كما خدمها في مصر بشر فارس . ومحمود حسن اسماعيل .. وهكذا مما يدل لنا على هذا الذي نقول .

(٢) الفضل في تفصيل مذهب « التدرج في الفنون الادبية » (L'évolution des genres littéraires) يرجع إلى الناقد الفرنسي (بريتييه) (F. Brunetière) (١٨٤٩ — ١٩٠٧) الذي

مرتبط تمام الارتباط بتدرج الحيات السياسية والاجتماعية والفكرية التي تعيش
 الفنون في كنفها ، تطور قد جرب كثير أن يدرسه ، فوجدوه يسير مما يسمونه
 الطور الملحمي (époque épique) ، إلى الطور الاتباعي (ép. classique) ، فالطور
 الإبداعى (ép. romantique) ، فالطور الواقعى (ép. réaliste) ، فالطور الرمزى
 (ép. symbolique) . فالطور الاشتراكى (ép. socialiste) وهو آخرها المعاصر
 الآن مع بقايا من الرمزية ووجداناتها . وبعبارة أخرى ، إن للفنون
 الغربية ، أثواباً ، إن صح التشبيه ، مختلفة ؛ لكل عصر ثوب ، تسمى بالاصطلاح
 الفنى : المذاهب . . . هذه المذاهب التي لا تأتى كيفاً اتفق ، بل أنها تتطور
 تطوراً محمداً معروفاً مرتبطاً بتطور الحيات الاجتماعية والسياسية والفكرية ، حتى
 لكأن لكل فترة من الفترات التاريخية مذهبها الخاص بل هو بالفعل هكذا: مثل ذلك
 إذا أردنا أن ندلل على هذا بالأدب دون غيره من الفنون ، وبتطوره ، الأدب
 فى الطور الملحمى كان ملاحم ، تمجد أبطال الوطن وتخلد ذكراهم ، هى
 تمتاز بأسلوبها الخيالى الحسى ؛ ثم كان فى الطور الاتباعى أن ساد المذهب الاتباعى
 (le classicisme) الذى يتميز برجوع الأدباء فيه إلى الآداب اليونانية القديمة
 يحتذون حذوها . سواء فى معالجة الموضوعات معالجة فى قالب شعر تمثلى أو فى
 صياغة هذا الشعر صياغة رصينة محكمة ؛ ثم جاء بعد هذا ، المذهب الإبداعى
 (le romantisme) مع الرغبة فى التحرر من قيود القدامى ، من أجل التعبير عن
 الذات الشاعرة تعبيراً حراً بأسلوب وجدانى خيالى ناثراً على العروض والقوافى ؛
 ثم تبع هذا ، المذهب الواقعى (le réalisme) مع الرجوع من جديد إلى القديم
 وبخاصة فى التقيد بالأصول الأسلوبية فى صياغة الشعر والنثر صياغة رصينة محكمة
 والدعوة إلى التقيد بالواقع تقيداً دقيقاً ؛ ثم جاء المذهب الرمزى (le symbolisme)
 مع ثورته ، من جديد ، على هذا الواقع ، ودعوته إلى الرجوع إلى الذات الشاعرة
 والانطواء عليها ، ثم التعبير عن هذا الانطواء بأسلوب حر من قيود التقاليد الشعرية
 العروضية ؛ ثم بعد هذا كله ، أتى المذهب الاشتراكى (le socialisme) فلا يصبح
 الأدب ولا الفن هو غاية ذاته . وإنما يصبح وسيلة بيد الحزب الحاكم ، ينشر
 به ما شاء من أفكار ومذاهب .

كان يطلب وهو متأثر بأفكار (دارون) فى النشوء والارتقاء . يطلب ان يدرس تاريخ الأدب
 دراسة مذهبية تطورية

وهذه الظاهرة الفنية ، ظاهرة أن تكون الرمزية مذهباً يحد بزمان له مشخصاته السياسية والاجتماعية والفكرية ، لها أهمية كبرى بالنسبة إلى بحثنا السيكلوجي وذلك أنها تربينا أن الرمزية نوع من المعاناة الوجودية قد عاشها فنانونها في ظروف معينة قبل أن يعبروا عنها ؛ وبالتالي ، هي تساعدنا على إبراز نوع العمليات النفسية التي هي في أساس إبداع هذا الضرب من التعبير الذي هو التعبير الرمزي .

٢ - الرمزية كأسلوب فني - المدلول الدقيق للرمز

وهذه الناحية التاريخية في الرمزية إن كانت ستفيدنا في دراستنا السيكلوجية هذه ، بإلقائها أضواء كثيرة على الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي أحاطت بالرمزية ، ومهدت لها به السبيل ؛ إلا أنها ، في الحقيقة ، لا تكفي وحدها لإبراز فكرة أمينة عن الرمزية في جزئياتها : بل لا بد في نظري ، من الوقوف على الناحية الأسلوبية الفنية في الرمزية ، هذه الناحية التي أسميها ، بالنسبة إلى الرمزية في الأدب ، الناحية البلاغية (١) .

وتتخلص هذه الناحية البلاغية - رغم ما يوجه إليها من نقد سوف نشير إليه - في أن نعتبر الرمزية معها ، أسلوباً فنياً أدبياً ، نخضعه كغيره من الأساليب الفنية الأدبية للبحث البلاغي ؛ بعبارة أخرى ، هي تتخلص في دراسة الرمزية في أسلوبها الفني الأدبي الذي تجلت فيه ، هذا الأسلوب الذي بتحليله إلى عناصره التعبيرية البسيطة ، والتي هي الصورة والفكرة والعاطفة ، نستطيع أن نبرز فيه خصائص الرمزية وميزاتها .

ولقد قمت بهذا التحليل ، ورأيت أنه في إبراز خصائص الأسلوب الرمزي لا بد من الشروع بإبراز خصائص الرمز (le symbole) في البلاغة ، الرمز لا بالمدلول الأول الشامل الذي وقفنا عليه منذ قليل ، حين رأينا أنه تترتب عليه الرمزيات التاريخية والاجتماعية والعلمية ، لا وإنما الرمز بمدلوله الثاني الدقيق (٢)

(١) شيء علاً قلبي غبطة ، هو أن تمثل للرمزية تمثلاً بلاغياً ، على أنها أسلوب فني أدبي . أخضعه للدراسة البلاغية . هو تمثل مبتكر ، حتى في البلاغة القرية . ودراساتي البلاغية هذه في الرمزية يمكن متابعتها في مجلة « الأدب » اللبنانية التي كنت وما أزال أنشر فيها بحوثي في بلاغة الرمزية وتاريخها .

(٢) التعريف المنطقي للرمز (Le symbole) بمدلوله الدقيق ، كما سنقف عليه في العدد المقبل ونقارنه بغيره من صور التعبير كالصورة (L'image) والألفوريا ، أو التشبيه الرمزي المبسط (L'allégorie) مقارنة سيكلوجية هو : الرمز شيء حسي ، معتبر كإشارة إلى شيء معنوي لايقع

الذى له . وبهنا أن نعرف عن هذا الرمز بمدلوله الثانى ، أنه إذا نظرنا إليه من وجهة بلاغية : « صورة image ، ومعنى أنه صورة هو أنه رسم شىء محسوس chose sensible ، معتبرة كإشارة إلى شىء معنوى ، لا يقع تحت الحواس ، بين هذا الشىء المعنوى وبين ذلك الشىء المحسوس علاقة هى المشابهة « Analogie » ولكن ، لا يخفى ، أن الذى يعطى هذه الصورة الحسية معناها الرمزى ، إنما هو (الأسلوب) كله ، الذى تصاغ فيه ، أى طريقة التعبير التى استخدمت هذه الصورة وحملتها معناها الرمزى . وفلا نحن لا نستطيع فصل الرمز عن الأسلوب الذى يضمه . وإنما بدأت هنا بتعريف الرمز بمفرده ليسهل علينا إدراك خصائصه ، هذه الخصائص التى تتجلى هى ذاتها فى (الأسلوب الرمزى) . وذلك أن الأسلوب الرمزى أيضاً أسلوب حسى ، ترمز صورته الحسية هذه ، حالات معنوية يوحىها السياق التعبيري الذى يضمها كله ؛ وأنه — أى هذا الأسلوب الرمزى — إذا قارنا بينه وبين غيره من الأساليب الأدبية المذهبية ، من أجل إبراز ماهيته الفنية وغايته الجمالية ، فنجد أنه لا يرمى إلى عرض فكرة من الأفكار التى تعرض فى الأدب ، ولا إلى سرد قصة من القصص التى تحيكها خيلة الأدباء ولا إلى وصف منظر من المناظر الطبيعية التى يهبها العالم الخارجى . لأن هذه الغايات الأدبية كلها ، يرمى الأديب فيها إلى الإيضاح والإفهام ، بل وإلى الإقناع أيضاً ، والرمزية عدوة هذا كله وإنما هو يرمى إلى متح أدق مافى النفس الإنسانية من أفكار ، وأعمق ما فيها من عواطف وانفعالات ، كما تثيرها فى نفس القارئ من جديد ، بوسيلتين . قد اتفق جميع من عانى الكتابة فى أمور الرمزية ، على أنهما : الرموز ، والموسيقى . الرموز — وهى كما كنا نقول ، صور حسية ترمز أشياء معنوية لاتقع تحت الحواس — تثير هذه الانفعالات والعواطف الخاربة ، وتلك الأفكار الدقيقة المتموجة ؛ والموسيقى — موسيقى الأسلوب نفسه — تنشط مجرى الشعور وتساعد الرموز فى مهمتها الإيحائية فى النفس الإنسانية .

فهذه هى الرمزية فى أسلوبها الفنى الأدبى ؛ بعبارة أخرى ، هذه هى الرمزية من وجهة نظر بلاغية . ألا إننى لا أنكر — وهذا هو النقد الذى يمكن أن يوجه إلى تمثلى البلاغى للرمزية — لا أنكر أنه يخشى أن تضيق مع وجهة النظر البلاغية

تحت الحواس ، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشئيين ، أحست بها خيلة الرامز . »

وهذا التعريف هو للاستاذة Harzfield, Thomas, Darmesteter

التحليلية هذه ، حقيقة الرمزية الوجدانية التي هي نوع من المعاناة ، كما تظهر هذا الوجه التاريخي . إلا أننا نحن في مجالنا السيكلوجي هذا ، سوف نستخدم كل معلوماتنا التاريخية والبلاغية من أجل التدليل على ما نريد التدليل عليه ، وبصورة خاصة عندما ندرس هذا التعاطف الرمزي ^(١) Sympathie symbolique بين الشاعر أو المنشئ الرمزي ، وبين العالم الخارجي .

٣ - مجالات البحث السيكلوجي في الرمزية

ويمكننا الآن إذن ، ولوج المجال السيكلوجي في البحث ، لنحدد فيه الدائرة التي سنلتزمها فيه ، والمنهج الذي سنتبعه في معالجة موضوعاتها ، إلا أنني أحب قبل هذا ، أن أفرق ، استناداً إلى ما كنا نقوله في تاريخ الرمزية وبلاغتها أو فنيها ، بين نوعين ^(٢) من الرمزية أو من التعبير الرمزي : أحدهما ، يقوم على هذا التعاطف بين الشاعر الرمزي وبين العالم الخارجي ، والآخر ، لا يقوم عليه ، وإنما هو يحمل خصائص الأسلوب الرمزي ، من أنه أساليب حسي يرمز حالات معنوية ، كأدب الصوفية والفلاسفة عندما يرمزون حالاتهم المعنوية . وكما أن كلا منهما رمزية ، أو تعبير رمزي فني ، فكى لا نغبط أحد هذين النوعين حقه من الدراسة ، نحب أن تضم دائرة بحثنا الكلام في سيكلوجيتهما .

ولذلك ، سيكون منهجنا الذي سنسير عليه في هذه الدراسات هو الآتي : سنبدأ بدراسة الرمز le symbole دراسة سيكلوجية ، ونقارنه ، مقارنة سيكلوجية بغيره من صور التعبير الأدبي الفني : فنبرز بهذا خصائصه الفنية ، ومستلزماته المنطقية السيكلوجية ؛ ثم ندرس سيكلوجية الصور البسيطة التي تتجلى فيها هذه الخصائص ، أي سندرس سيكلوجية الرمزية في النعوت الحسية

(١) لقد تعرض الأستاذ هنري ديلاكروا (H. Delacroix) في كتابه عن سيكلوجية الفن (La psychologie de l'art) إلى دراسة هذا (التعاطف الرمزي) . وسيكون لنا عود فيما بعد على آرائه هذه .

(٢) ان من يقرأ مقالة الأستاذ جورج ديما (G. Dumas) القيمة في (ملكة الرمز) La symbolisation المنشورة في الجزء الرابع من كتابه الجديد في علم النفس ، يلاحظ أن جورج ديما لا يعبأ بهذا (التعاطف الرمزي) الذي هو في أساس الرمزية في الفنون . وإنما هو يتكلم عن الرمزية على أنها كما نقول نحن من وجهة بلاغية أسلوب في التعبير يحمل خصائص الرمزية . فيجمع جنباً إلى جنب الرمزية في النعوت الحسية ، والرمزية في التعبير عن الانفعالات ، كالرمزية الصوفية والرمزية كنهج استبطان والرمزية في الآداب . وهذا في نظري تجريد يخفى معه ضياع حقيقة الرمزية كذهب .

le symbolisme sensoriel بدراسة (وحدة الحواس) وما يقال فيها ؛ ثم ندرس بعد هذا سيكولوجية الرمزية الانفعالية أو الرمزية في التعبير عن العواطف والانفعالات ، وبصورة خاصة الرمزية الصوفية le symbolisme mystique ونحاول أن نكشف عن الصلة بين الأفكار والعواطف والصور ، والتعبير عنها . وهنا في هذه الدراسة ، كما في دراسة (وحدة الحواس) ، سيلاحظ القارئ أننا ننحو المنحى الجشطالتي في التفسير ؛ ثم ، بعد هذا كله ، ندخل في الرمزية في الآداب لندرس ذلك (التعاطف الرمزي) بين الشاعر الرمزي وبين العالم الخارجي ونرى هل أساسه فلسفي فكري ، هو الأفلاطونية ؛ أم أن أساسه بيولوجي سيكولوجي يرجع إلى وجدان الشاعر ؛ ونكون بهذا كله قد أعطينا فكرة مركزة ودقيقة عن هذه العمليات النفسية وشروطها ، التي هي في أساس إبداع هذا الضرب من التعبير الفني الذي هو التعبير الرمزي .

عبدان الزهبي

القاهرة

Résumé

DE LA PSYCHOLOGIE DU SYMBOLISME

Par

Adnan Al-Zahabi

Le but de l'auteur dans cet article, qui est une introduction à une série d'articles sur la psychologie de l'art symbolique, est de définir les divers genres de symbolisme, y compris le symbolisme dans l'art, et de délimiter pour chacun de ces genres le domaine de l'étude psychologique. Il commence par différencier ces genres de symbolisme, fondant cette différenciation sur la différence qu'il y a entre les deux sens que présente le terme de *symbole*.

En effet, *symbole* a deux sens: il signifie, au sens large, un signe quelconque, un signe conventionnel; et au sens strict, "une chose sensible considérée comme signe d'une autre chose qui ne tombe pas sous les sens." Ainsi l'emploi des symboles, au sens large du mot, donne ces genres de symbolisme que l'auteur distingue en les qualifiant de social, historique, ou scientifique conventionnel, réservant le terme de *symbolisme*, tout seul, à l'art symbolique qui est basé sur l'emploi des symboles, au sens strict du mot symbole.

L'auteur passe ensuite en revue les divers genres de symbolisme, s'arrêtant surtout au symbolisme dans l'art qu'il définit historiquement et rhétoriquement. Dans ce dernier symbolisme il distingue le symbolisme artistique qui a pour base la *sympathie symbolique* que le poète éprouve entre son monde intérieur et le monde extérieur, et c'est ce qui constitue le véritable symbolisme; et le symbolisme qui n'est pas basé sur cette *sympathie symbolique*, mais qui a les caractéristiques du style symbolique, comme le symbolisme mystique et philosophique. Cette distinction se révélera très utile dans l'étude psychologique du symbolisme.

En ce qui concerne l'étude psychologique, bien que l'auteur indique le domaine de cette étude dans tous ces genres de symbolisme, il s'attache spécialement à approfondir l'étude psychologique du symbolisme dans l'art, en donnant dans cet article le plan de son étude. Ce plan se présente comme suit: Après l'étude du *symbole* du point de vue psychologique, l'auteur abordera l'étude des premières formes de symbolisme qui constituent le *symbolisme sensoriel*; la détermination de sa nature amènera l'étude du problème psychologique de *l'unité des sens*, qui est à la base de l'explication de ce *symbolisme sensoriel*. Puis l'auteur passera à l'étude du symbolisme dans *l'expression des émotions* en étudiant le rapport qui existe entre les émotions et les images symboliques qui les expriment; finalement à l'étude psychologique de la *sympathie symbolique* qui est à la base de l'art symbolique proprement dit.